﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمرُ الإلهيُّ بقطعِ دابرِ الشاذّين عن الفطرة، بعذاب مستأصل مباغت

لمّا بيّنت الرّسل للوطٍ عليه السلام حالَ قومِه، وامتثل لأمر ربِّه فسرى بأهلِه ليلًا فنجَوا، ولمّا قضى الله تعالى بقطعِ دابرِ قومِه ترتّب على الأمرِ نزول العذاب فجاء قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ (صيح): تَشقيقُ الصَّوتِ، مِنْ قَولِهم: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوبُ، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصيحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ، كذلك[2]، والصّياحُ صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[3]، والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكوا، والصَّيحةُ أيضًا: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها[4]، ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تفزع عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[5]، والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صَعقةٌ في الهواءِ، وهي صَواعِقُ وزَلازِلُ، وفيها حِجارَةٌ مِنْ سِجّيلٍ[6].

2) ﴿مُشۡرِقِينَ﴾: أصلُ (شرق): أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ وفَتْحٍ. مِنْ ذلكَ شَرَقَتِ الشَّمسُ، إذا طَلَعَتْ، وأشْرَقَتْ، إذا أضاءَتْ، والشُّروقُ: طُلوعُها[7]، وأشرَقَ القومُ: صاروا في وقت شُروقِ الشَّمس[8]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(2) الراغب، المفردات: (صيح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (شرق).

والمَشْرِقُ والمغربُ إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشَّرْقِ والغَرب، وإذا قيلا بلفظ التّثنية فإشارة إلى مطلعي ومغربي الشِّتاء والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كلّ يوم ومغربه، أو بمطلع كلّ فصل ومغربه، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: 17]، ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾ [مريم: 16]، أي: من ناحية الشّرق، والمِشْرَقَةُ: المكان الَّذي يظهر للشّرق[1]، والمقصود بـ﴿مُشْرِقِينَ﴾ في الآية: اسمُ فاعِلٍ مِنْ أشرَقوا؛ إذا دخلوا في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشَّمس، بصورةٍ مفاجئة ساحقة

ذَكَر سبحانه عاقبة أمرهم فقال: فأخَذَتْهم صيحةٌ عَظيمةٌ هائِلَةٌ مُهلِكةٌ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ[3]، وسبب اختيار هذا الوقت كونهم متجمعين في مساكنهم، ويجمع بين قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ [الحجر: 66] وبين قوله هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾ بأنّ ابتداءَ عذابهم كان عند الصُّبح، وانتهاءَه كان عند الإشراق.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

العقوبة الشّديدة، أفضل وسيلة لقطع حيلة المفسدين

أفادت الفاء التّرتب والتّعقيب، بمعنى أنَّ اللّه تعالى لمّا قضى عليهم بقطعِ دابرِهم ترتّب عليه وقوع العذاب بأخذهم بالصّيحة وما تلاها، كما أفادت الفاء أنَّ اللّه تعالى عاجلَهم بالعقوبةِ بعد أن قضى بقطعِ دابرِهم.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شرق).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/69.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/93، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/42.

العذاب بالصّيحة، إحاطة وقهر واستئصال

نكتة التّعبير بلفظ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

لمّا كان الأخذُ هو حوزَ الشَّيءِ وتحصيلَه على سبيل التّمكّن منه أفاد لفظ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ معنى إحاطة الصيحة بهم وتمكّنها منهم أي قهرها إيّاهم[1].

التّعبير بالأخذ عن سرعة الهلاكِ، من بليغ السّياق

بلاغةُ الكنايةِ، في أخذ الصّيحة لهم:

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وفيه لمّا كان قولُه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ دالًّا بظاهرِه على تمكّن القهرِ والهلاكِ منهم أفادَ بلازمِه على طريقِ الكناية بلفظ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ سرعةَ هلاكِهم وتمكّنه منهم، فيكون المرادُ من التّعبير الملزومَ ولازمَه.

العذاب بالصّيحة، عذاب مهول، يستأصل من الجذور

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾:

(أل) في الصيحة جنسيَّة، لتفيد أنّ الصيحة التي أخذتهم فيها كلُّ معاني الصّيحة من القوّة ونفاذ الوصول، فكأنَّ ما سواها ليس بصيحة، والمعنى أخذتهم صيحة هائلةٌ مهلكةٌ، وذهب بعضهم إلى أنَّ (ال) عهدية، والمراد صيحة جبريل، وعلى القول الأول جمهور المفسّرين، فتعيين جبريل ليس مستفادًا من النّظم الجليلِ ولا يتعلَّق به غرضٌ[2].

الصّيحة هي الصّوت العظيم الهائل أو هي صاعقة العذاب

دلالة لفظ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ في السّياق:

المرادُ منَ الصّيحة الصَّوتُ العظيمُ الهائلُ، الذي يكون منه العذاب، ويكون بفعلِ اللّه تعالى، أو هي صاعقة العذاب، وهي بفعل اللّه كذلك[3].

بلاغة المجاز في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾:

أسند الأخذ الذي بمعنى القهر إلى الصّيحة على طريق المجاز

(1) الراغب، المفردات، (أخذ)، والآلوسي، روح المعاني: 7/317.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/189.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/119، والواحدي، التفسير البسيط: 12/636، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.

العقليِّ، تعظيمًا لأمر الصّيحة وهولِها، ليفيد التّعبير بلازمِه أنَّ هلاكَهم كانَ بالصّيحة[1].

هلاكُ المنحرفين كان بالصّيحة العظيمة، السّاحقة الماحقة

بلاغةُ الإخبار بالحالِ ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ دون الظَّرف:

لمّا كان الحال قيدًا لعاملِه، وكان على معنى بيان هيئة صاحبِه، ولمّا كان لفظ ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ بمعنى داخلين في الشروق، وفي وقتِ إضاءَةِ النّهار، دلَّ التّعبير بالحال هنا على اقترانِ أخذِ الصيحة لهم في حالِ كونِهم داخلين في وقتِ بزوغ الشّمس وإضاءَتها، فأفاد الحالُ استصحابَ مشاهدتِهم لِهيئتِهم في حالِ أخذ الصّيحة لهم؛ لبيانِ شدَّة الموقفِ وهولِه لِمَن ينحرف عن الفطرة الإنسانيَّة ويكذّب الرّسلَ، ويكون العذاب عليهم بهذه الهيئة أشدَّ ممّا أن يكون في ظلامِ الليل.

من انحرف عن الفطرة السّويّة، سلّط الله عليه أشدَّ أنواعِ العذاب

توجيه المتشابه اللّفظيّ في مواضع من السّورة:

قد يقال: قال اللّه تعالى أوّلًا: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ [الحجر: 66] فكان قطع دابرِهم مصبحين، وقال بعد ذلك: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، فكيف يجمعُ بين قطع الدّابر في وقت دخولِهم في الصّباح وفي وقتِ دخولِهم في الإشراق؟ والجوابُ من وجْهَيْن: أحدهما: أن ابْتِداء العَذاب كانَ من وقت دخولِهم في الصَّباحِ، وتَمامه عِنْد دخولِهم في الإشْراق، أي: إنّهم أهلكوا بعد الفجر مصبحين واستوفاهم الهلاك مشرقين، والثاني: أنَّ الإشراقَ ها هنا بمعنى الإصباح، وهو المناسب لسرعة الأخذ، كما تقدَّم، فإنّ هلاكَهم ليس له زمانٌ ممتدٌّ، وذكر الإشراق هنا دونَ الإصباح للإيذانِ بأنَّهم كانوا يرون وقوع العذاب عليهم؛ لأنَّه كانَ عندَ دخولِهم في وقتِ انتشار ضوء الشّمس، فيكون أشدَّ وأبلغَ[2].

الإشراق بمعنى الإصباح، موحٍ بالمباغتة، من حيث لم يحتسبوا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/435.

(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/146، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370.